(12) المشكلة الثانية [الحريـة والمسؤوليـة]

إذا كانت المسؤولية مشروطة بالحرية، فماذا يبقى لها من مشروعية أمام المناصرين للجبر والحتمية ؟

***

مقدمة : طرح المشكلة

عرض وضعية – مشكلة وتحليلها.

I . من الحرية إلى المسؤولية

أولا : عرض رأي مناصري الحرية ومناقشته.

ثانيا : عرض آراء نفاة الحرية من حتميين وجبريين وأهل الكسب والتحرر ومناقشتها.

II . من المسؤولية إلى الحرية

أولا : ماذا لو افترضنا أن الشرط ثابت مع أهل الحرية ؟

ثانيا : أليس من الشرعي طرح قضية المسؤولية قبل طرح قضية الحرية؟

III . ألا يتمثل مصدر المشكلة وحلّها في عظمة الإنسان ؟

أولا : عظمته في كونه كائن القيم لأنه حضين المسؤولية وراعيها؛

ثانيا : عظمته بين ميزاني العلية العلمية والعلية الفلسفية؛

ثالثا : عظمته في كونه خليفة في الأرض مكلّف بمهمة.

خاتمة : حل المشكلة.

نص فلسفي

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

مقدمة : طرح المشكلة

إن القراءة الأولية للقضية المطروحة، تقودنا مباشرة إلى القول بأن المشكلة التي يجب معالجتُها هي تلك التي تتعلق بالمسؤولية ما دامت مشروطة بالحرية، ولا معنى للمسؤولية في غياب الحرية. ولكن الاختبار المتأني يجعلنا نتساءل على العكس من ذلك، عما إذا لم يكن من الممكن اعتبار الشرط مشروطا **بدوره**، ونقع في مسألةِ، أيُّهما يعتبر المبدأ: المسؤولية أم الحرية ؟ إن المنطق السليم يوحي لنا، بادئ ذي بدء، بأن المسؤولية تَثبُت بثبوت شرطها، وتُرفع برفعه. ولكن، ألا يمكن مع ذلك، إثبات المسؤولية كقاعدة أولى، ثم البحث عن تبرير وجودها عن طريق الحرية؟ ومعنى هذا، أن المشكلة في الحقيقة مزدوجة، تدعونا تارة، إلى الانطلاق من **الحرية كشرط لتأسيس المسؤولية**، وتارة أخرى إلى اعتبار هذه **المسؤولية شرطا يبرِّر ويستوجب وجود** الحرية. وهنا، نجد أنفسنا أمام قضية لا تختلف عن الإشكالية من حيث هي ميئوس من حلّها.

وللوصول . تفاؤلا . إلى نتائج مقنعة، نحاول الرد على الأسئلة الثلاثة التالية: كيف يمكن اختزال المشكلة في الشرط(الحرية) لا في المشروط (المسؤولية)؟ وكيف يمكن رد حقيقة المشكلة إلى المشروط لا إلى الشرط ؟ ألا يتمثل مصدرُ المشكلة وحلُّها في عظمة الإنسان ؟

ولكن قبل الردّ عليها، نمهّد للقضية المطروحة بتحديد" وضعية – مشكلة"، وتحليل مضمونها.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

. عرض وضعية مشكلة :

« بلغ القطار المحطة في أمان، فتساقط الركاب عنه كما تتساقط الأوراق عن الشجر في يوم اشتد ريحه، وكانوا جميعا من العمال، فساروا يحُدِثون صوتا كدويّ النحل، وراحوا يسيرون في نفس الطريق الذي قطعوه آلاف المرات قبل يومهم هذا، وكانوا يدبون كسلحفاة لا ينظرون أمامهم، ولا يلتفتون حولهم، بل ينطلقون كما تنطلق الدواب التي عرفت طريقها من كثرة ما دبت عليه. انطلقوا وما فكروا قط في يومهم، ولم يفكروا؟ فأيامهم جميعا متشابهة، ففي الثامنة صباحا يدخلون، وعند الحادية عشرة يفطرون، وفي الثالثة ينصرفون، وكان الأمل الوحيد الذي يداعبهم أثناء عملهم، لو تتكرم عقارب الساعة الكبيرة، المثبتة في الفناء الواسع المواجه للورشة، فتدور بسرعة، حتى تبلغ الثالثة، فينصرفون شاكرين، لتستريح بعد ذلك (عقارب الساعة) ما شاءت لها الراحة، فما أصبح دورانها يعنيهم بعد انفلاتهم من سجنهم. كانوا ينظرون إلى ورشتهم نظرتهم إلى سجن بغيض.... »[1].

. تحليل الوضعية المشكلة :

أخي الطالب؛ لو تأمّلت هذا المقطع من القصة، تجد نفسك أمام إحدى كبريات المسائل الفلسفية التي ما زالت تُسيل كثيرا من الحبر، وتثير كثيرا من الجدال.

---

[1] . عبد الحميد جودة السحار " في الوظيفة " (مجموعة قصص) عن كتاب الفلسفة لوزارة التربية و التكوين التونسية، المركز الوطني البيداغوجي .

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

- هؤلاء عمال، يخرجون من القطار كما تسقط أوراق الشجر في يوم عاصف ؛
- ويحدثون أصواتا كدويّ النحل؛
- يمرّون على طريق قطعوه آلاف المرات؛
- يدبّون كسلحفاة تقيّدها قوقعتها، فلا ينظرون أمامهم، ولا يلتفتون حولهم.
- ورشتهم سجن والوقت أثناء العمل يمضي بطيئا.

أخي الطالب؛ إن هذه الأوصاف تصور عمّالا وقعوا تحت نير العادة والرتابة، بحيث خلت حياتهم من كل إبداع، وأصبحوا يؤدون نشاطهم على نحو آلي كسقوط ورقة الشجر بفعل الريح، **لا تملك من أمرها شيئا**، أو كنشاط النحل الذي تحركه الغريزة ولا يملك القدرة على تغييره، والشروط التي يعملون ويتحركون خلالها كقوقعة السلحفاة، فإن كانت تحميها إلى حدٍّ ما فهي تحدّ من حريتها في الحركة، لتأتي النتيجة في نهاية المقطع معلنة أنهم كانوا ينظرون إلى ورشتهم نظرتهم إلى سجن بغيض. وهكذا تلاحظ، عزيزي الطالب، أن العامل الذي كان من المفروض أن يحرّره العمل من ضغط الحاجة، ويمدّه بمجالات جديدة للإبداع، وبالتالي يحرِّر قدراته الإبداعية ويحقق فاعليته الإنسانية تحول إلى قيد وسلب للحرية.

ولكن **ما هي الحرية؟** إذا كان العمال الذين تصفهم القصة شعروا بأن ورشتهم سجن، وبالتالي فهم ليسوا أحرارا، لكونهم يقومون بنشاط رتيب يفرضه عليهم نظام الورشة، هل يعني هذا، أن الحرية هي أن يتصرف الإنسان على النحو الذي يرغب فيه؟ أم يتصرف على النحو الذي يفرضه العقل والنظام؟

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

ماذا لو أن هؤلاء العمال توقفوا جميعا عن العمل كي يستردوا **شعورهم بالحرية**، ألاَ يعرِّض ذلك وجودهم و وجود المجتمع إلى الضرر؟ حينها ألا يمكن أن نعدّهم **مسؤولين** عن ذلك الضرر لأنه كان في **وسعهم** تجنبه؟ وهل شهادة الشعور . في إثبات الحرية أو نفيها. يمكن الوثوق بها؟

مفهوم الحرية :

من المتعذر العثور على مفهوم جامع مانع لمعاني الحرية، بل إن كل نظرة فلسفية تتحدث عن الحرية إثباتا أو نفيا بمعنى محدد يختلف عمّا تحمله نظرة أخرى. ومع ذلك؛ عزيزي الطالب، من الضروري أن ننطلق من تصورٍ ما للحرية، حتى وإن اضطررنا إلى تصحيحه خلال التحليل، لأن الذي **يبحث عن شيء لا يعرفه لا يمكن أن يجده.**

أ . لغة : الحرية من حَرَرَ و « الحُرُّ بالضمّ : خِلافُ العَبْدِ. الحُرُّ : خِيَارُ كلِّ شيْءٍ وأَعْتَقُه. وحُرُّ الفاكِهَةِ خِيَارُهَا. والحُرُّ : كلُّ شيءٍ فاخِرٍ من شِعْرٍ وغيره مِن ذلك الحُرُّ بمعنى الفَرَس العَتِيق الأَصِيل يقال : فَرَسٌ حُرٌّ . مِن المَجاز : الحُرَّ مِن الطِّين والرَّمْل : الطَّيِّبُ كالحُرَّةِ . وحُرُّ كلِّ أرضٍ : وَسَطُهَا وأَطْيَبُها [.....] والحُرِّيَّةُ بالضمّ : الأرضُ الرَّمْلِيَّةُ اللَّيِّنَةُ الطَّيِّبَةُ الصالِحَةُ للنَّباتِ وهو مَجَازٌ. وفي الأساس: أَرْضٌ حُرَّةٌ: لا سَبَخَةَ فيها. من المَجاز: الحُرِّيَّةُ من العَربِ : أشرافُهُم يقال : ما في حُرِّيَّةِ العَرَبِ والعجَمِ مِثْلُه وقال ذو الرُّمَّةِ :

فصارَ حَياً وطَبَّقَ بعد خَوْفٍ ... على حُرِّيَّةِ العَرَبِ الهُزَالَى. أي على أشْرَافِهم. ويقال : هو من حُرِّيَّةِ قَومِه؛ أي مِن خالِصِهم » .

ويتضح من المعنى اللغوي أن الحرية من جهة أولى لا تخص الإنسان بل تشمل الحيوانات والجمادات. ومن جهة ثانية تقسم الموجودات وتفاضل

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

بينها، وكما تفاضل بين الأشياء الحُرّة والتي ليست حرة، فإنها أيضا تفاضل بين (الإنسان) الحر والعبد. وهكذا فإن هذا المفهوم لم يكن مانعا من الجهة الأولى، ولم يكن جامعا من الجهة الثانية.

ب . اصطلاحا :

ب/1 التصور الميتافيزيقي : في الجملة ينظر أصحاب التصور الميتافيزيقي للحرية على أنها **قدرة على** التصرف **باستقلال** عن **الإكراهات** الداخلية والخارجية، وبهذا المعنى، يكون الإنسان حرا عندما يكون « هو منبع أفعاله ومصدرها، وأنّه بالإضافة إلى شعوره بجريان أفعاله منه، يشعر أنه هو الذي يُجري هذه الأفعال، ويتصرف فيها بالفعل والترك وفقا لاختيارٍ يقوم به (من بين عدة اختيارات ممكنة)[1]. ومن هذا المعنى يمكن تحديد خصائص هذه الحرية على أنّها : – **نقيض الضرورة** لكونها ترتبط بالممكنات، – وهي قدرة **فطرية** لكونها تخص الإنسان– ومن ثم فهي **ثابتة** و**شاملة** و**مطلقة**؛ أي لا يتوقف وجدوها على شرط – وهي **ترتبط بالشعور**.

ب/2 . التصور الواقعي : يتجّه أصحاب الطرح الواقعي إلى ما يمكن ملاحظته وقياسه، ولما كانت الحرية بالمعنى السابق لا تقبل الملاحظة والقياس، تخلى عنها هؤلاء وإن قالوا بالحرية فإن قولهم يحمل معنى مختلف. فالحرية عندهم إنجاز وعمل، إنّها تجاوز للإكراهات (الضرورات والحتميات) الطبيعية والنفسية والاجتماعية، وبهذا يكون الإنسان حرا بقدر ما يبدع من الوسائل الحضارية التي تساعده على **تجاوز الحتميات** ليس بإلغائها وإنما بتوظيفها لصالحه، إذن « كل

---

[1] . محمود يعقوبي : الوجيز في الفلسفة المعهد التربوي الوطني 1987–1988 ص . 148.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

تقدّم للحضارة كان خطوة نحو الحرية»[1]كما قال "أنجلز" Engels. ومن هذا المفهوم يمكن تحديد خصائص الحرية على أنها: – ترتبط بالعمل لا بالشعور؛ – مكتسبة ومتغيرة؛ – وتخص الإنسان؛– وتشترط معرفة الضرورة (والحتمية) واستغلالها ولا تتنافى معها. **الحرية إذن إنجاز وليست معطى، إنها تحرّر دائم و مستمر.** بعد هذا التقديم، تعال؛ أخي الطالب؛ لنطرح القضية بالشكل التالي؛ إذا كنتُ حرًّا، فذلك يعني أني أختار أفعالي وأنسبها إلى نفسي، فأنا ملزم بتحمل نتائجها، ومن جهة ثانية لكي أتحمل نتائج أفعالي يجب أن أكون حرّا، فكل **تكليف يفترض الحرية**؛ ألا تلاحظ ؛ أخي الطالب؛ أن هناك علاقةً وطيدة بين الحرية والمسؤولية لا تقبل الفصل؟ .

I. من الحرية إلى المسؤولية

إذا كان الحديث عن المسؤولية لا يستقيم إلا بوجود الحرية. ولنا أن نسأل : هل حقيقةً، الإنسان حرّ أم مقيّد ؟ وإذا كان حرّا، فكيف نتعرف على أنّه، في أفعاله، يتصرَّف بحرية؟ **في الأمر أربعة مذاهب : 1 . مناصرو الحرية، 2 . و نفاتها، 3 . وأصحاب الكسب والتوسط، 4 . وأهل التحرّر.**

---

[1] . أنجلز "الرد على دوهرينغ" من كتاب أنا أفكر الفلسفة في البكالوريا (الجمهورية التونسية – وزارة التربية)

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

أولا : عرض رأي مناصري الحرية ومناقشتُه

التناسخ

1 . عرض رأيهم : إن حرية الاختيار. لدى الآخذين بالنظرية التقليدية[1]. **مبدأ مطلق لا يفارق الإنسان**؛ وهو أزلي يتخطى مجال الدوافع الموضوعية والذاتية على حدّ سواء. ويتمثل هذا المبدأ تارة، في قرار الإنسان . قبل نزوله إلى الأرض . في أن يكون حرا في اختياره لأفعاله، وتارة ، في شعوره أو إرادته صاحبةِ القرار، وتارة ، في أعماق النفس وطبيعة الذات الوجودية؛ و**الحرية بهذا المعنى ذاتية للإنسان** ومن ماهيته ؛ **أي أن الإنسان لا يمكن إلاّ أن يكون حرا** ولهذا الموقف مبرِّرات كثيرة على الصعيد النفسي والعقلي والاجتماعي والديني والسياسي ... .

أ . يعبر"أفلاطون Platon" عن تصوره لهذا المبدأ، في صورة **أسطورة**، هذا ملخصها: إن "آر" (Er) الجندي الذي استُشهد في ساحة الشرف، يعود إلى الحياة من جديد بصورة لا تخلو من المعجزات[2]. فيروي ويصف لأصدقائه الأشياء التي تمكَّن من رؤيتها في الجحيم حيث إن الأموات يُطالِبون

---

[1] . اكتست عبر التاريخ، أشكالا متعددة ، لدى بعض الفلاسفة أمثال : " أفلاطون " قديما، والمعتزلة في العصر الإسلامي الذهبي (القرن الثامن للميلاد)، و" ديكارت " في العهد الحديث ، و" برغسون " و" سارتر " في العهد المعاصر.

[2] . و كان يعتقد بفكرة تناسخ الأرواح.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

بأن يختاروا بمحض حريتهم، مصيرا جديدا لتقمُّصهم القادم. وبعد ذلك؛ أي بعد اختيارهم لمصيرهم، يشربون من نهر النِّسْيان "ليثه" (Léthé) ثم يعودون إلى الأرض. وفي الأرض، يكونون قد نسوا بأنّهم هم الذين اختاروا مصيرهم، ويأخذون في اتهام القضاء والقدر في حين أن " الله " بريء[1].

ب . ويذهب المعتزلة إلى أن شعور المرء أو إرادته هي **العلّة الأولى لجميع أفعاله**، وهي منحصرة في قرارة نفسه[2]. **فهو يحس من نفسه وقوع الفعل بحسب الدواعي والصوارف**[3]: فإذا أراد الحركة تحرّك، وإذا أراد السكون سكن. ومعنى هذا، أن الأفعال التي يقوم بها، إنّما يمارسها بإرادته الحرة، حسب الظروف التي تلامسه. ويعتقدون أن القول بأن الإنسان مسؤول ومحاسَب على أفعاله، حجةٌ على عدل الله[4]، وأنه لا يمكن أن تصدر عنه مباشرة معاصي الإنسان ؛ فالإنسان عندهم، لا بد من أن يكون خالقا لأفعال نفسه[5]، ولكنه خالق للأفعال فقط[6]. ولذلك يعرف **المعتزلة بأهل العدل والتوحيد**.

---

[1] . أفلاطون، الجمهورية، ترجمة حنا خباز، دار الكتاب العربي، من غير تاريخ الكتاب العاشر، موقف الفصل في المصير. انظر أيضا ، Platon, La république, L.I, P .32.

[2] . وهذا ما يعرف بالبرهان النفسي عند المعتزلة.

[3] . ويقصدون بالدواعي والصوارف العوامل التي تجعل الإنسان يميل إلى القيام بالفعل أو تركه دون إرغام له، على خلاف السبب الذي تلزم عنه نتيجته بالضرورة .

[4] . ويعرفون بالقدرية فالإنسان قادر على عمل الخير وعلى عمل الشر ولذلك كان عدلا من الله أن يحاسب الإنسان فيثيبه على ما أحسن ويعاقبه على ما أساء.

[5] . أبو الفتح محمد الشهرستاني، الملل والنحل ، ص . 59 ؛ 114 .

[6] . دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ص . 100 .

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

ج . وكان هذا أيضا، موقف "ديكارت" حيث قال:" إن حرية إرادتنا يمكن أن نتعرف عليها بدون أدلة، وذلك **بالتجربة المباشرة** وحدها التي لدينا عنها "ويقصد بذلك "حرية اللامبالاة" d' Liberté indifférence وهي القدرة على الاختيار بين مُمْكِنين دون مبرّر يدعو إلى هذا ويصرف عن ذاك.

د . وفي اتجاه قريب من " أفلاطون " ، يذهب " كانط E. Kant" إلى أن **الحرية مصادرة من مصادرات العقل العملي**؛ وليس بدعا أن يكون الإنسان حرا ومسؤولا ما دام اختياره الأصلي، إنما يتحقق في عالم مطلق معقول، لا يخضع بأي حال، لقيود الزمن. وإن صاحب السوء هو الذي يكون قد اختار بكل حرية، تصرفَه منذ الأزل بقطع النظر عن الزمن أو الطباع. فالشرور الفاشية في العالم، إنّما هي نتيجة حرية اختيار.

هـ . وهذا " برغسونH. Bergson" يرى أن الحرية هي عين "ديمومة الذات" Durée ، و" **الفعل الحر يصدر في الواقع عن النفس بأجمعها** "، وليس عن قوة معينة تضغط عليها أو عن دافع بالذات يتغلب على غيره، كالثمرة التي تعبر عن الشجرة التي أنتجتها. و**الديمومة** عبارة عن تغير مستمر بحيث لا يمكن أن تتكرر حالتان متشابهتان تمام التشابه؛ والعلّة الباطنية العميقة تُنتج معلولها مرة واحدة ، ولكنها لا تنتجه بعد ذلك أبدا[1]. وهذا يعني أن العالم النفسي لا يخضع إطلاقا لتلك الحتمية العلمية التي يكشف عنها قانون العلية. فالحرية ليست موضوعا للتفكير أو التحليل؛ "**إنها معطًى مباشرٌ للشعور** Donnée immédiate de la conscience ". يقول " برغسون " : **[إن الفعل الحر ليس فعلا ناتجا عن التروِّي والتبصّر. إنه ذلك الفعل الذي يتفجر من " أعماق النفس "].**

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

[1] H.Bergson, Essai sur les données immédiates de la conscience.

و . ويقول " سارتر J.P. Sartre" : " إن الإنسان لا يوجد أولا، ليكون بعد ذلك حرا، وإنما ليس ثمة فرق بين وجود الإنسان و وجوده حرا "[1] و" إنه كائن أولا، ثم يصير بعد ذلك هذا أو ذاك". إنه مضطر إلى الاختيار والمسؤولية. **فالحرية ملازمة** Inhérente **للإنسان، لأنّها من ماهيته.**

هذه على العموم، بعض المواقف الكلاسيكية التي ترى بأن الإنسان حر حريةً مطلقةً وبأنه من ثمة، يتحمل عواقب اختياره.

2 . مناقشة رأيهم :

إنّ تعريف الحرية بأنها "غياب كل إكراه داخلي أو خارجي"، تعريف ميتافيزيقي لا وجود له في حياتنا الواقعية. والقول **بحرية الإرادة** حرية مطلقة تتجاوز قوانين الكون ولا تحدّها أسباب ومؤثرات، لضرب من الخيال لأن ذلك منافٍ لكل مبادئ المعقولية التي يتصف بها الإنسان، فليس الإنسان الحر من يختار دون مبرر من المبررات ولا سبب من الأسباب[2]. وإنْ هُو اختارَ، لا يصنع ذلك خارج الحتميات التي تحاصره من كل جهة.

أ . إن الإرادة ليست تلك القوة السحرية التي تقول للشيء "كن فيكون"[3] Fiat، وتنفلت من كل مؤثر خارجيا كان أو داخليا. إن للعوامل الاجتماعية والرغبات اللاشعورية والمؤثرات البيولوجية تأثيرا بعيدا على نشاطها، وعلى ما تقرره

---

[1] . J.P.Sartre, L'être et le néant, p. 80.

[2]. كما يرى أنصار النزعة العبثية، ومنهم " أندري جيد A. Gide " صاحب رواية مغارات الفاتيكان Les Caves du Vatican. الفعل الحر فعل مجاني Acte Gratuit .

[3] ." كن" Fiat لفظ يقال بالتشكيك عن فعل الإرادة الإنسانية من جهةِ ما هي أصلٌ لحصولِ شيءٍ جديدٍ يحقِّق غايةً متصودةً .المعجم الفلسفي .

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

من أفعال. ولهذا، فإنّ الحرية المتمثلة في إرادة مطلقة أو متعالية عن الزمان، هي حرية لاواقعية تتجاهل نظام الكون.

ب . وشعورنا بأننا أحرارٌ مصدر انخداع وغرور فضلا عن أنه ظاهرة نفسية ذاتية لا تتوقف عن التقلب. يقول "سبينوزا Spinoza ": " يظن الناس أنهم أحرار لأنهم يدركون رغباتهم ومشيئاتهم، ولكنهم يجهلون الأسباب التي تسوقهم إلى أن يرغبوا أو يشتهوا". ويقارن "سبينوزا" الشعور بحرية الإرادة بحجر رُمي إلى الفضاء وهو حجر . فيما يقول . لو كان يتوفر على شيء من الشعور لظنّ في **أثناء رميه وسقوطه نحو الأرض**، أنّه **يقرِّر** مسار قذفته ويختار المكان والوقت الذي يسقط به[1]. والحقيقة أن سقوطه كان بعوامل خارجية تتحكّم فيه بشكل مطلق.

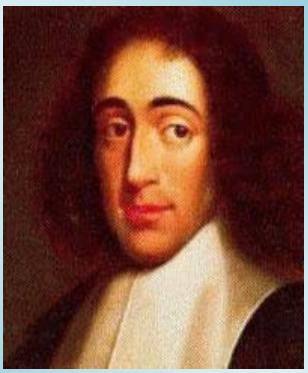

سبينوزا 1632 – 1677

د . أما الحرية التي يبحث عنها " برغسون "حرية ذاتية؛ أي حرية الفرد المنعزل عن الآخرين. والواقع الاجتماعي يُثبت أنها **فعل** يمارَس مع الآخرين، وأنها حرية الكائن المنخرط في الجماعة. **فالإنسان يكون حرّا في الوسط الاجتماعي حيث يتعلم كيف يسيطر على جوارحه وشهواته من ناحية، وعلى**

[1] . Spinoza, œuvres 4, lettre LVIII, à G.H. Schuller, p. (303-304).

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

آليات الطبيعة والمجتمع التي تحول دونه ودون الوصول إلى حياة سامية وشريفة من ناحية أخرى.

د . وعن تصور "سارتر" للحرية، فيمكن القول بأنه تصور متشائم، لأن الحرية ليست حرة لا في أن توجد ولا في أن لا توجد. وبدلا من أن تعمل على السموِّ بنا، فإنها تضغط علينا كقانون جبري أو قضاء محتوم لا يمكن تفاديه. إنّه محكوم علينا بأن نكون أحرارا ! وتطابق وجود الإنسان مع حريته، معناه حذف كل تمييز بين أفعالنا التي هي حرة، وتلك التي هي غير حرة. **كيف يمكن للإنسان التمييز بين الفعل الحر وغيره من الأفعال، إذا كان مجبورا بالاختيار؟** إن" سارتر" ينفي الحرية من حيث أراد أن يثبتها. وهذا الموقف هو أيضا، خيالي.

ثانيا : عرض آراء نفاة الحرية من جبريين وحتميين، وأهل الكسب والتحرر ومناقشتُها.

1 . **عرض آرائهم .**

أ **. إن** القول بالقضاء والقدر (أو الجبرية fatalisme) يقيم عددا من العقبات في وجه الحرية. ومن ذلك، أنه يَعتبر المستقبل محددا تحديدا أزليا، وأن كلَّ ما يحصل هو قضاء وقدر ومكتوب مهما فعلنا، حيث يعتقد أنصار **الجبرية الخالصة** عند المسلمين (أو الجهمية، نسبة إلى جهم بن صفوان) أن الإنسان في أفعاله، لا إرادة له ولا اختيار؛ وإنما **يخلق اللهُ فيه الأفعالَ** على حسب ما يخلق في سائر الجمادات، وينسب إليه الأفعال **مجازا**، كما ينسب إلى الجمادات. "فكما يقال : أثمرت الشجرة وجرى الماء وتحرك الحجر وطلعت الشمس وتغيّمت السماء، كذلك يُقال : سافر محمد ونجح علي وأبدع عمرو" . إن الله قدّر

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

عليه أعمالا، لا بد من أن تصدر منه، كما قدر عليه أن يثاب أو يعاقب[1]. ومع ذلك، فالعبد مسؤول أمام خالقه يوم الوعد والوعيد، "وهو اللطيف الخبير"[2]، **وينطلقون من فكرة أن الله خالق كلّ شيء وعِلْمَ الله علمٌ كليٌّ.**

ب . وقال "الأشعري" قاصدا التوسط بين الجبر والاختيار: "إن أفعال الإنسان لله، خلقا وإبداعا؛ وإنها للإنسان، كسبا ووقوعا عند قدرته؛ فالإنسان يريد الفعل وتتجرد له همته، والله يخلقه". وقد دعا "الأشعري" إلى هذا الرأي الذي يشبه رأي بعض الفلاسفة المسيحيين مثل "ديكارت" و "مالبرانش" و "جويلنكس" : **ضرورة المحافظة على مبدأ لا نزاع فيه، وهو أن الله خالق كل شيء وضرورة الاعتراف بما يحسّه الإنسان في نفسه من إرادة و من قدرة على الأعمال الاختيارية**[3].

د . وفي سياق القول بالتحرّر، يذهب الرواقيون إلى أن الحرية ليست معطًى أوليا في ظل عالم مجبر، وإنما هي تُكتسب بالكد والعمل على أساس : " **العيش على وفاق قوانين الطبيعة، والسير حسب الطبيعة العاقلة التي تمكننا من فهم نظام الكون المنضود المحكم، وكبح شهواتنا الجموحة**". وتحرُّرُنا يقاس بقوة أو ضعف أعمالنا وإنجازاتنا. فلا بد من قبول الضرورة ابتداءً، كما " تَقبل" الأسطوانة الدوران.

---

[1] . الشهرستاني، نفس المصدر السابق الجزء 1 ، ص : 114. وكفيلسوف أشعري، ذهب " ابن رشد " إلى القول بالاختيار في نطاق أسبابٍ وضعها الله في الكون، وأخرى خلقها في دواخل أبداننا كالإرادة. انظر، مناهج الأدلة (فلسفة ابن رشد)، ص 137.

[2] . الأنعام ، 103 ؛ الملك ، 14 .

[3] . دي بور ، تعليق 1 ، ص . 126 .

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

وفي نفس الاتجاه يرى "سبينوزا " أن أفعال الإنسان هي مجرد ظواهر آلية تسير وفق قوانين ضرورية وثابتة. والحرية إنما هي في **قبول الضرورةَ المعقولة المسيِّرة للكون**. فكلما زاد عقله علما، **ازداد فهما لقوة الطبيعة ونظامها**، ومن ثمة **ازداد تحررا** وتحكما في مستقبله؛ أو ما يعرف **بحرية الحكيم** Liberté du Sage. ويركِّز على أن المرء لا ينبغي أن يتحرر من قيود المجتمع ونظامه، لأن سمو المرء إنما هو في التحرر من ضرورة الغرائز." إن الإنسان العاقل، كما يقول "سبينوزا"، هو أكثر حرية في مدينة يمتثل فيها للقانون من الانفراد حيث لا يمتثل إلاّ لنفسه".

ويدعو " ك. ماركسK . Marx " . من أجل تحرر الإنسان من كل ظلم وكل استغلال وتغيير العالم . إلى امتلاك العلم لاكتشاف القوانين الموضوعية التي تُسيِّر الكون وتتحكم في حياته الاجتماعية. وفي سياق التحرر، يرى "مونيي E. Mounier" الفيلسوف الشخصاني أن "كل حتمية جديدة يكتشفها العالِم تُعد (نوطة) تضاف إلى سلم أنغام حريتنا"، وأن حريتنا ليست سوى غزو مستمر[1]. وبهذه الطريقة في التحرر ، يقرر الشخص مصيره ويتحمل مسؤوليته.

ج - ينطلق الحتميون(أنصار الحتمية)على أنقاض التعريف الميتافيزيقي الشائع للحرية والقائل بأنها تجاوز كل نوع من أنواع الإكراه، داخليا كان أو خارجيا ؛ لأن الحرية بهذا المعنى يستحيل وجودها على أرض الواقع، وذلك لأن مبدأ الحتمية قانون عام يحكم العالَم. ومؤداه "**أن كل ما يحدث هو تابع بالضرورة لسوابقه**" بحيث لا يكون سوى محصلة ممكنة. فكل ظاهرة لها تاريخ، ويتلخّص هذا التاريخ في الحوادث التي سبقت حدوث الظاهرة، ولا يقتصر هذا

[1] . E. Mounier, Le personnalisme, 1ère P. Chap. V.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

على ظواهر العالم الطبيعي فحسب، بل ينطبق على جميع الظواهر والأحداث الطبيعية وبوجه الخصوص، على **الإرادة الإنسانية** وما تنطوي عليه من دوافع وحوافز، وإن كانت هذه الظواهر تختلف في طبيعتها عن الأحداث الطبيعية، كحركة الأرض والتمدد والجاذبية والعمليات الكيميائية. فالحتمية قانون عام للعالم لا يترك مجالا للحرية المطلقة. وعلى هذا الأساس، تكون إرادتنا تابعة لنظام الكون، فلا حول لها ولا قوة لتجاوزنظام الكون، ويكون اختيارنا وهْما باطلا. أما **الحتميات التي يخضع لها الإنسان فمتعددة** ، منها :

* **الحتمية الفيزيائية** : حيث إن الإنسان – مهما قيل في تفوقه عن سائر المخلوقات – لا يعدو أن يكون جسما، يسري عليه من نظام القوانين ما يسري على جميع الأجسام : فيخضع لقانون الجاذبية ويتأثر بالعوامل الطبيعية من حر وقر وريح وطوفان.

* **الحتمية الفيزيولوجية** : ويخضع باعتباره عضوية، لشبكة من القوانين والعلِّيات البيولوجية مثل نمو المضغة والبنية النوعية لجسمه وانتظام الأعضاء واختلالها والشيخوخة والموت. ومن ذلك، أن كل واحد عند الولادة، يكون حاملا لمعطيات وراثية تتعلق بالعتاد الكروموزومي الوراثي، كالجنس والخصائص الأساسية للمزاج.

* **الحتمية الاجتماعية** : وفي مجالها، يؤكد علم الاجتماع بأن تصوراتنا وأحكامنا وتصرفاتنا راجعة إلى ما اكتسبناه من عادات وتربية وأخلاق. إننا في لغتنا مثلا، وملابسنا واحتفالاتنا المرآة العاكسة للضمير الجمعي، وهو بمثابة القانون القسري contrainte الذي تتحدد بموجبه سلوكاتنا، يقول "دوركايم" ، في هذا السياق : " عندما يتكلم الضمير فينا فإنّ المجتمع هو الذي يتكلّم ".

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

* **الحتمية النفسية** : إن مواقفنا الواعية حسب التحليل النفسي، لا تستجيب فقط، للعوامل الفيزيائية والبيولوجية والاجتماعية فضلا عن المؤثرات الذهنية، بل إنّها المرآة العاكسة أيضا، للرغبات المدفونة والمكبوتة في لاشعورنا.

أستنتج من كلّ ما سبق : أنّ أنصار الحتمية يشتركون في القول بأن جميع سلوكات الإنسان تتحكم فيها أسباب خارجة عن إرادته و يختلفون في نوعية هذه الأسباب.

2 . مناقشة آرائهم

أ . إن القول بالحتمية لا يعني تكبيل الإنسان ورفع مسؤوليته. فهناك فرق بين عالَم الأشياء وعالم الإنسان من حيث إن الأول يستجيب آليا لنظام الطبيعة، والثاني يستجيب له وهو كله عقل ووعي. وأكثر من ذلك، يستطيع أن يسخر لنفسه قوانين الطبيعة حسب إرادته، بعد معرفتها والتحكم في استخدام علاقتها الثابتة التي تحكمها.

فوجود القوانين في الطبيعة لا يمنع العاقل من تسخيرها لمآربه وتوظيفها من أجل القيام باكتشافات ومن أجل تغيير العالم؛ لا بل الحرية لا تكون إلا حيث نكون مقيديَّن، لا بعامل القوى والضغوط، ولكن بعامل الدوافع والمبرِّرات العقلية. **عندما نجهل دوافع تصرُّفِنَا، فنحن على يقين بأننا لم نتصرف تصرفا حرا**. ومسؤوليتُنا تتمثل ابتداءً، في قبولنا لنظام الكون بكل سرور، وتصرُّفِنَا وفقا لما يمليه علينا نور العقل. **وعليه، فالحتمية لا تتنافى مع الحرية إنْ هي أُخذت في هذا السياق، على أنها تحررٌ. والحق أن العقبات لم تمنع الناس من تجاوزها**

جميع الحقوق محفوظة ©

ومن تقرير مصيرهم. فلم تَحُلْ كوارث البراكين والزلازل دون قيام الدول من أعظم الدول على هذه المعمورة التي تنكب بها الكوارث من حين لآخر كاليابان.

ب ـ إن مثل هذا الأسلوب الذي يستخدمه **أهل القضاء والقدر، يدعو إلى التعطيل وترك العمل والركون إلى القدر**، وهو لا يقدّم إلا برهانا كسولا[1] على حد تعبير " لايبنتز Leibnitz" ، فإذا كان ما يجب أن يحدث سيحدث بالضرورة، فما الفائدة من بذل الجهد ؟

ومثل هذا القول أيضا، قد يوقف القوانين المألوفة عن العمل والتي لا يَعرف عنها الإنسان متى تقع ولا أين وكيف تقع. فمن غير المعقول على الفكر البشري أن يدخلها في حسابه ما دامت تشذّ عن الحساب المألوف، وقد لا يكون لها حساب من نوعٍ يستطيع أن يحذقه الإنسان. ومن التساؤلات المحرجة التي تفرزها مناقشة الجبرية :

إذا كان الإنسان مجبرا، فلماذا يُسأل، فيعاقبه القانون الاجتماعي والإلهي؟

كيف يحدّد الله مصائر العباد ويخلق أفعالهم، ويحاسبهم بعد ذلك، والله ليس بظلاّم للعبيد؟ ألا يصنع ذلك، على أساس أنه زوَّدهم بالقدرة على الاختيار؟ إذا قلنا بهذه القدرة على الاختيار من ناحية، ألا نضع من ناحية أخرى، " المكتوب " موضع الشك ؟

ج ـ ومَن توسَّط في القضية (أي الأشاعرة)، لم ينف عن الله إرادته ومشيئته في عملية الخلق الكلي، ولم ينفلت بأسلوب أو بآخر من "الجبرية"، بالتالي فإنّ قيل في مناقشة أهل الجبر يمكن سحبه على الأشاعرة ومن نحا نحوهم .

---

[1]. أو ما يعرف بـ" دليل الكسول" Argument du Paresseux .

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

د . أما من يقول بالتحرّر فإنه ينطلق من **مصادرة**، وهي أن الإنسان مقيَّدٌ ويعمل تدريجيا على أن يتحرّر من قيوده، ولكن مع العلم أنه لا يستطيع التخلص منها كلية بمفهوم التسخير ولا التخلص منها مطلقا بمفهوم الانفلات من كل حتمية، ومع ذلك، فهو صاحب القرارات وكائن المسؤوليات.

وهكذا، فإنه لا يمكن البرهان على أن الإنسان حر كشرط للمسؤولية ولا على أنه غير حر، ولا يعقل التوسط بينهما. وحتى على احتمال أن الإنسان حر، فكيف يمكن إثبات حريته لنُلحق به المسؤولية[1]؟ أمّا في حالة تقييد الحرية، فالأمر أمران : إمّا أن ترفع المسؤولية لارتفاع شرطها، أو تثبت لسبب أو لآخر تبريرا لصفة التكليف الشرعي مثلا، أو لوجود الضوابط الردعية والقوانين. وهنا، تتشابك التناقضات والمفارقات بشكل يحتم القفز إلى تصور آخر للقضية. فكيف إذن، تقوم المسؤولية والشرط (أي الحرية) الذي يؤسسها لم يتأكد ؟ ومع ذلك، **تبقى المسؤولية – كما سنرى – قائمة يتحمّلها الإنسان بوصفه إنسانا.**

---

[1] . فإن ارتفعت لرفعها، نكون أمام عالم إنساني ليس له ما يبرّر تفوقه على سائر الكائنات، ولا تنطبق عليه الآية القرآنية 70 من سورة الإسراء، ولا الآية 22 من سورة الأحزاب.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

II - من المسؤولية إلى الحرية :

هل يعقل الحديث عن المسؤولية التي يتوقف ثبوتها أو نفيها على الحرية وهي لم تثبت بصورة مطلقة ؟

أولا : ماذا لو افترضنا أن الشرط ثابت مع أهل الحرية ؟

فإذا ثبت فَرَضًا، فالاحتمال احتمالان : ففي الاحتمال **الأول** يكون الإنسان مسؤولا لأنّه حر، ويترتب على القانون . عند الاقتضاء . الاقتصاص منه ؛ وفي الاحتمال **الثاني** يكون حرّا بسبب تكليفه و وجود مؤسسات قانونية توحي بأنّه بصفته إنسانا، هو **مكلّف ومسؤول** قبل أن يكون حرّا، ولا يختلف الأمر في ذلك بين الصغير والكبير ولا بين البالغ وغير البالغ، وإلاّ فلماذا نهنئ الطفل عند نجاحه الدراسي أو نوبِّخه بالزجر عند ارتكابه لخطأ ؟ وكأن المسؤولية قضاء محتوم على الإنسان لا لشيء إلاّ لأنه إنسان، وبأن له اعتقادا عميقا بحريته في الاختيار. وفي هذه الحالة، ألا يمكننا القول بأن الحرية أصبحت مشروطة بالمسؤولية، وأن الإنسان حرّ لأنه مسؤول ؟

ثانيا : أليس من الشرعي طرح قضية المسؤولية قبل طرح قضية الحرية؟

وذلك، لأن الإنسان يجب أن يكون مسؤولا أولا، ليكون لهذا السبب، حرا بعد ذلك. وكأن رجال الدين وفلاسفة الأخلاق يرون بأن: **"التكليف يسبق الحرية ويبرِّرها سواء كان تكليفا ربانيا أو تكليفا أخلاقيا، وبقطع النظر عن العوامل المختلفة التي تحيط بالمكلف".**

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

يقول المعتزلة : **إن الإنسان لو لم يكن حرا، لكان التكليف سفهًا ولبَطُل الوعد والوعيد والثواب والعقاب. فلا يصح عقلا أن تقول لمن ليس حرا: افعل ولا تفعل ! لا يكلِّف الله نفسا إلاّ وسعها**[1].

وفي سياق الإلزام الأخلاقي، يصرح " كانط " بأن الواجب يتضمن الحرية : " يجب عليك، إذن تقدر"[2]. لا نستطيع أن نتحقق من وجود الحرية عن طريق الرجوع إلى التجربة السيكولوجية أو عن طريق البرهان العقلي. **فالواجب هو الذي يسمح لنا بأن نتصور امتلاك الإنسان لحرية معقولة** تعلو نطاق الظواهر، وإلا لما كان هناك موضع للحديث عن قانون أخلاقي[3].

هذا، والمسؤولية تتجلى بوجه أخص وأوضح في العقوبة. إن العقوبة حسب التصور الكلاسيكي، تبرَّر أخلاقيا، لأنها مرتبطة أشد الارتباط بالقانون الأخلاقي نفسه. يقول "لايبننز" : "هناك نوع من العدالة ليس له قطعا غرض التعديل ولا غرض المَثَل ولا حتى غرض إصلاح الشرور. هذه العدالة لم تقم إلاّ على التوافق الذي يستلزم ضربا من الرضا (أو الإرادة) في **التكفير عن فعلٍ سيء**. ويمكن القول أيضا، إن ثمة نوعًا من التعويض الفكري الذي تُهينُه الفوضى إذا لم تساهم العقوبة في إعادة النظام ثانية "[4].

---

[1] . وفي هذا السياق، يمكن الرجوع إلى قوله تعالى : " لا تُكلَّف نفسٌ إلا وُسعها" (البقرة ، 233) ؛ " لا يُكلِّف اللهُ نفسا إلا وُسعها " ؛ " ربَّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقةَ لنا به " (البقرة ، 286).

[2] . إ. كانط ، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ، القسم الثاني.

[3] . إ. كانط ، نفس المصدر السابق.

[4] . نقلا عن : A. Bridoux, Morale, p. 57.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

ونفس الفكرة يعبر عنها "مالبرانش Malebranche" في غير ما مِن صفحة في "مقالة في الأخلاق " حيث يقول : إن جزاء الاستحقاق وعقوبة الخطيئة يقتضيهما النظام الضروري للعدل، وهو القانون الذي لا يجوز انتهاكُه ونقضه لا من طرف العقول ولا حتى من طرف الإله نفسه. "إن الذي يريد من الله ألاّ يعاقب الجور أو إدمان الخمر لا يحب الله"[1]، وكأن شرط الحرية يغيب نسبيا لترك المجال لمقتضيات القصاص.

ولا يفوتنا القول ونحن في صميم الإلزام الأخلاقي، **بأن العقوبة لا بد للضمير الخلقي من أن يتولاها. فكلّما كان الضمير حسّاسا وكان الفعل لا يتفق مع قيم الإنسان العليا، كان الندم أشد**[2].

إلاّ أن هذا الموقف الأخلاقي أهمل ما لدور العقوبات الاجتماعي من أهمية في حياة الأفراد. يصرح " غيوGuyot " بأنه لا بد من أن يكون للعقوبات غرضُ الدفاع الاجتماعي قبل كل شيء ومنفعة المجتمع. وهذا يؤكد بصفة أو بأخرى، التصاق المسؤولية بالإنسان. ولقد اهتم جملةٌ من العلماء بدراسة أسباب ظاهرة الإجرام ليس فقط للفضول العلمي، وإنما وبوجه أخص، لإسعاف المجرمين

---

[1] . نقلا عن بريدو، نفس المصدر السابق. ويرى " كانط " من جهته، أن **القانون الأخلاقي** يحمل في جوهره العقوبة. فهي لا تؤسس القانون الأخلاقي ولا تنشئه، وإنما هي متحدة به برابطة تركيبية، ويذهب إلى حد القول بأنّ القانون الجنائي أمر أو واجب حاتم وأن المذنب لا بد من أن يعتبر شخصا قابلا للعقوبة قبل أن يكون في الإمكان التفكير في استنباط عن طريق العقوبة . بعض المصالح لنفسه أو للمجتمع.

[2] . والإحساس بالعقوبة الباطنية يتخذ مواقف ثلاثة : الأسف والندم والحسران(أو التأنيب وتبكيت الضمير).

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

ومنعهم من تكرار الإجرام ومنع الغير من تقليدهم[1]. فإذا كان لا بد مثلا، من الصاعقة أن تقع، ولا يمكننا منعها من الوقوع، فلا بد على الأقل، من تخفيف وطأتها. فكذلك، لا بد من التخفيف من ثقل المسؤولية ما دامت ملتصقة بنا. فقد يَسْخَرُ بعضُهم بالقول بـ" أن القاتل . إذا خُيِّر بين أن يَقتل غيرَه أو يُقتل، اتجه نحو الحل الأول . يعفى من المسؤولية الجنائية "؛ والحق أنه يستمر في ممارسة مسؤوليته لأنه مخيَّرٌ بين أن يَقتل أو يُقتل، فقرر أن يبقى حيا.

ولقد تواصلت الجهود لمكافحة الجريمة على يد علماء إيطاليين أمثال " لامبروزو C. Lombroso " و" أنريكو فيري". ولم يعد تقسيم المتهمين عند تصنيفهم، إلى فئتين متميزتين : فئة المسؤولين من جهة، وفئة غير المسؤولين من جهة أخرى، وإنّما إلى **من يستحق القصاص، ومن يستحق العلاج** وربّمامن يستحق التطعيم والتحصين، بصفتهم جميعا كائنات مسؤولة. وأخذ الدور التربوي شيئا فشيئا، يحتلّ الصدارة في العقوبات.

ولكن مهما تقدمت الدراسات الجنائية واتسعت، يبقى من الصعوبة بمكان معرفة قوام المسؤولية الأخلاقية التي تبنى عليه كل أشكال المسؤوليات من المدنية إلى الجنائية إلى المجتمعية[2]؛ وقوامها النية. وهذه العقبة تضاف إلى عقبة

---

[1] . ومن أنصار هذا الاتجاه، العالم القانوني الأخصائي في الجناية، "بيكاريا" (Beccaria 1794 –1738) الذي حارب الفكرة الكلاسيكية القائلة بـ" أن الجنح وليدة حرية الاختيار (المجاني) ولا دواء لها ".

[2]. المسؤولية نوعان:مسؤولية أخلاقية ومسؤولية اجتماعية؛ **الأولى : الأخلاقية** هي شعور الشخص الداخلي بأن ما صدر عنه من أفعال هي أفعاله، وأنه يتحمّل عواقبها أمام محكمة ضميره (ولهذا فهي تقوم على النية)؛ و**الثانية** صنفان : مسؤولية اجتماعية **(قانونية)** وأخرى **مجتمعية** ؛ والصنف الأول قسمان : مسؤولية جنائية (حيث يتحمل الجاني هو نفسه ما يترتب عن جنايته من عقوبات) وأخرى مدنية (حيث يتحمل الشخص عواقب أفعال لم يقم بها هو نفسه بالضرورة كتحمل الأب مسؤولية أفعال أبنائه)؛ وأما الصنف الثاني(أي المجتمعية) فهي المسؤولية التي يكون فيها الشخص مدانا أمام الرأي العام للقرية أو العائلة أو المجتمع في حالة انحرافه عن تقاليد مألوفة . ولهذا

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

الاهتداء إلى إثبات الحرية التي مرّت بنا، فضلا عن شرط آخر، ليس موضوع هذه المشكلة، ألا وهو التمييز بين الخير والشر[1]، ولا يخفى ما يعانيه علماء النفس في إقامة الدليل على وضوح هذا الشرط أو عدم وضوحه لدى المتهم في أثناء إقباله على الجريمة. وإذا اجتمعت كلّ هذه العوامل في هذه الدرجة من الصعوبات، أدركنا ما في الإنسان من سر لا يعلمه إلاّ هو. ومن علامات هذا السر هو أنه يبقى في كل الحالات ومن الناحية القيمية بوجه أخص ، حضين المسؤولية؛ أي أن يتحمّلها ويعتني بها ويرعاها.

نستنتج من كلّ ما سبق : " **أن الذين بحثوا في الحرية كموضوع فلسفي أو كشرطٍ للمسؤولية، سواء كانوا من أنصارها أو من غيرهم الذين وقف بعضهم موقف النقيض أو التوسط، لم يرفعوا ولم ينفوا إطلاقا المسؤولية، وهذا لا يجب أن نستغربه ما دام الإنسان كائنا مكلفا بالطبيعة، وينفرد عن الكائنات الأخرى بالإرادة** ".

فالعقوبة الجنائية هي أشد عقوبة يتحملها كل من يتعدى على قوانين المجتمع ؛ والتعدي قد يكون جريمة قتل مثلا أو نهب أو انتهاك حرمات.

[1]. التمييز بين الخير والشر مبدأ أخلاقي؛ والتمييز بين الحلال والحرام مبدأ ديني؛ والتمييز بين النافع والضار مبدأ اجتماعي.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

III . ألا يتمثل مصدر المشكلة وحلّها في عظمة الإنسان ؟

أولا : عظمته في كونه كائن القيم لأنه حضين المسؤولية وراعيها

يُعرف الإنسان بخاصية المسؤولية أكثر منها بخاصية الحرية. وتظهر بذورها منذ الطفولة إلى مرحلة ما قبل سن الرشد. والدليل على ذلك، أن الطفل يُنظر إليه على أنه كائن المسؤولية، يتحمل تبعات أفعاله في البيت وخارج البيت وفي كل لحظة. إنه بقطع النظر عن أسلوب التعامل معه في هذه الحالة، كما ينصح به البيداغوجيون، موضوع سخط وزجر وتوبيخ. وأكثر من هذا، فإن المسؤولية تسبق الحرية وأحيانا لا يطرح فيها شرط الحرية. فقد يقول لك قائل : " إنك الآن مسؤول عن أخيك" أو "عن نظام القسم" أو "عن وديعة ما" دون أن ترفض له أمرا.

فالآمر في معظم الحالات، لا يسألك عمّا إذا توفرت أو ثبتت فيك الحرية، وإن كان يفترضها ضمنيا ؛ نقول يفترضها لأنه لا يستطيع أن يثبتها ولا أن ينفيها. فهو **يسلّم بها** كما يُسجِّل رضاك وقبولك بتنفيذ الأمر. ومع هذا، **فإن المسؤولية كخاصية جوهرية، يتميز بها كل كائن بشري**، وتتجلى في حالتين : كخاصية جوهرية بقطع النظرعن الأفعال كموضوع قابل لأن يحكم عليه بأنه خير أو شر ؛ وكتبعة تلحق الشخص بعد فعله وبوجه أخاص، إذا كان هذا الفعل قد انتهك به صاحبُه حرمة سلطة الضمير أو سلطة نظام المجتمع.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

ولهذا، فالمسؤولية تنصب على الإنسان أولا ، دون التساؤل عن شروطها، لأن الشخص يعتبر العلّة الأولى في القضية ؛ ثم شروطُها . كالحرية مثلا، والتمييز بين الخير والشر والإرادة . تأتي لإنصاف العدل وتبرير الحكم[1].

إنّ إلصاق المسؤولية بالإنسان نلمسه أحيانا، في دفع الضرر لدى بعضنا البعض حتى في حالةٍ، يتضح فيها ضعف شرط الحرية، كأن نزعج اضطرارا أحد المارة باصطدامٍ مفاجئ لم نكن نقصد من ورائه مكروها ؛ فنعتذر له ونرافقه إلى المستشفى ونعوِّض نفقاته مع علمنا بأن الانزعاج وقع هفوة لا نية فيها ولا قصد.

ثانيا : عظمته بين ميزاني العلية العلمية والعلية الفلسفية

وممّا يؤكد هذه الحقيقة، أن تقدير المسؤولية يدعونا إلى التمييز بين ميزاني العلية العلمية والعلية الأخلاقية أو الفلسفية ؛ **الأول** مبدأ صالح لعالم الأشياء يهتم بالعلاقة السببية التي تجمع العلة بالمعلول أو كما يعبّر عنها العلماء،العلاقات الثابتة بين الظواهر؛ **الثاني** مبدأ صالح لعالم البشر، يهتم بالإنسان من حيث هو مصدر الأفعال والعلةُ الأولى لها. إن الأسباب والمسببات مهما تسلسلت وتعاقب بعضُها على بعض، تنتهي إلى السبب الأول، وهو في النهاية الإنسان باعتباره الكائن المسؤول الوحيد .فعندما تسأل من فعل هذا، في مجال الأفعال الإنسانية، فإنّك بالضرورة لا تبحث عن المعرفة من أجل المعرفة، بل لتحميل الفاعل مسؤولية أفعاله إيجابا أو سلبا.

---

[1] . وفي هذه النقطة، يجب التركيز على المسؤولية الأخلاقية بوجه أخص، لأنها تتعزز وتترقَّى بالموازاة مع تهذيب الضمير وتربيته.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

وللتمييز بينهما، نضرب هذا المثال : فعندما يَسرق السارق، فالعالِم يبحث عن الدوافع الموضوعية التي حاصرت السارق ودفعته إلى السرقة. أما القاضي أو رجل الأخلاق والقانون، فإنّه مهما كانت التحقيقات دقيقة والتحريات موضوعية، فإنه دائما يَرجع إلى مَن فَعَل الفعل أي مَن سرق ؟ وهذا لا يعني أن المحكمة لا تأخذ بعين الاعتبار الظروف المخفِّفة التي تمكّن القاضي من إنصاف المتهم ؛ لأن المسؤولية يرفعها شرطان (أو أحدهما) : غياب حرية الاختيار وغياب التمييز بين الخير والشر في أثناء ارتكاب الخطأ أو التعدي. ولكن العامل المزدوج الذي يغيَّب في تأسيس المسؤولية هو " النية والإرادة "[1] ، وذلك لصعوبة معرفته معرفة موضوعية لدى أهل القضاء والقانون، وإن كان أهل الحكمة والأخلاق لا يتوقفون عن الإشادة به.

ثالثا : عظمته في كونه خليفة الله في الأرض مكلفا بمهمة

نحن أمام إشكالية لا تعرف طريقها نحو الحل إلا بالرجوع إلى العبرة من خلق الإنسان ومن تفضيل الله له. إنّه خليفةُ الله في الأرض في الحكم بين المكلفين من خَلْقِه، فيملكها ويتصرف فيها، لينظر الله كيف يتصرف هذا الإنسان خيرا أو شرا، فيعامله على حسب عمله[2]. وإنّه مُكرَّم ومكلّف أصلا. يقول تعالى: " **ولقد كَرَّمنا بني آدمَ وحَمَلْناهم في البَرِّ والبحر، ورزقناهم من الطيِّبات وفضَّلْناهم على كثيرٍ مِمَّن خَلَقْنا تفضيلا** "(الإسراء، 70)"، ويقول أيضا: " **إنَّا عَرضْنا**

---

[1] . أولوية المسؤولية تفترض الوعي والنية والإرادة.

[2] . انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، الآيات (البقرة، 30 ، ج. 2 ، ص ، 165 ؛ الأنعام ، 165 ، ج. 14 ، ص ، 13 ؛ يونس ، 13 ، ج. 17 ، ص ، 54).

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

الأمانةَ على السماواتِ والأرضِ والجِبَالِ، فَأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها وأَشْفَقْنا منها، وحَمَلها الإنسانُ، إنه كان ظَلُوما جَهُولا " (الأحزاب، 72) .

خاتمة : حل المشكلة

إن موضوع المسؤولية والحرية يرتبط أشد الارتباط بجوهر الإنسان. فكما أننا نقول في مجال الفلسفة، إن الإنسان حيوان عاقل . مهما كانت حدودُه الزمانية والمكانية، ومهما كانت ظروفه وسِنُّه . نقول أيضا، **إنه كائن مسؤول**، بقطع النظر عن وضعه وأحواله وسِنِّه. ومهما كانت عبقرية المفكرين في حصر مشكلته وضبطها، فإنّ لعظمة هذا الإنسان بالنظر إلى سائر الكائنات، سرا يزيده اعتبارا وكرامة في أعين المؤمنين بالخالق والفضوليين في إجلاء خباياه. ويكفيه فضلا، أنه مهما كانت تبعات أعماله خطيرةً، فإنه يبقى متشرفا بأمانة المسؤولية، وغايةً للإنسانية جمعاء.

جميع الحقوق محفوظة ©

نص فلسفي :

رسم تخيّلي لأبي حامد الغزالي

1058 – 1111

« تحزّب الناس في هذا (الأمر) أحزابًا، فذهبت المجَبِّرةُ[1] إلى إنكار قُدْرةِ العبدِ : فلَزِمها إنكارٌ ضرورةِ التفرقةِ بين حركة الرعدة والحركة الاختيارية، ولَزِمها أيضاً استحالة تكاليف الشرعِ ؛ وذهبتْ المعتزلة إلى إنكارِ تعلّقِ قُدْرةِ الله بأفعال العباد... وزعمتْ أنّ جميع ما يصدرُ (عن العبادِ من الأعمال إنّما هو) من خلْقِ العباد واختراعهم لا قدرة لله تعالى عليه بنفيٍ ولا إيجابٍ. فلزمهم من ذلك شناعتان[2] : (أ) إنكارُهم ما أطبق[3] عليه السلف من أنّه لا خالقَ إلاّ اللهُ ولا مخترعَ سواه ؛ و(ب) الثانية نسبَةُ الاختراعِ والخلقِ إلى قُدْرةِ منْ لا يعلم ما خلَقَه من الحركاتِ، فإنّ الحركاتِ التي تصْدُرُ من الإنسان وسائرِ الحيوانِ لو سُئِلَ (الحيوانُ أو الإنسانُ) عن عددِها و تفاصيلها ومقاديرِها لم يكنْ عنده خبرٌ منها. بل الصبي(المولود حديثاً) يدِبُّ إلى ثدي أمّه ويمتصّ ؛ والهرّة تدبُّ إلى ثدي أمّها مُغَمَّضَةَ العينينِ. والعنكبوت تنسُج من البيوت أشكالاً غريبة يتحيَّرُ المهندس في استدارتِها وتوازي أضلاعِها وتناسب ترتيبها. وبالضرورةِ نعلم انفكاكَها بما يعجز المهندسون عن معرفتِه ... .

---

[1] . القائلة بالجبر المطلق.

[2] . ذميمتان.

[3] . أجمع عليه .

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

فهذه أنواع الشناعاتِ اللازمةِ على مذهب المعتزلةِ. فانظر، الآن إلى أهل السنة كيف وُفِّقوا للسداد و رُشِّحوا للاقتصاد في الاعتقاد فقالوا : القول بالجَبْرِ (المطلقِ) محالٌ باطلٌ، والقول بالاختراع اقتحامٌ هائلٌ، وإنّما الحقّ إثباتُ القدرتين على فعلٍ واحدٍ والقول بمقْدورٍ (عليه واحد) منسوبٍ إلى قادرينِ[...] فإنْ قيل فما الذي حَمَلَكُم على **إثباتِ مقدورٍ بين مقدورين** : قلنا البرهان القاطِعُ على انّ الحركةَ الاختياريةَ مفارِقةٌ للرعدةِ . وإن فُرِضَت مرادةً للمرتعد ومطلوبةً له أيضاً . ولا مُفارَقَة (بينهما بالإضافةِ إلى الإنسانِ) إلاّ بالقدرة . ثمّ البرهان القاطع على أنّ **كلَّ ممكِنٍ تتعلّقُ به إرادة الله.** و**كلّ حادثٍ ممكنٌ**؛ و**فعلُ العبدِ (الإنسان) حادثٌ**، فهو **إذَن ممكِنٌ** ؛ فإنْ لم تتعلّق به قدرة الله فهو محال. فإذن، الدليل القاطع على إثباتِ القدرتَيْنِ (قدرة الله وقدرة الإنسان في كلّ عَمَلٍ إنسانيٍّ) ساقنا إلى إثباتِ **مقدورٍ** (واحدٍ) بين **قادِرَيْنِ فاعلَيْنِ** : (اللهِ و الإنسان) » .

أبو حامد الغزالي

الاقتصاد في الاعتقاد ، ص . 37

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

تطبيق : (تابع) طرائق كتابة المقالة الفلسفية :

طريقة الاستقصاء بالوضع

المحطات الثلاث	الاستقصاء بالوضع
طرح المشكلة	المطلوب الدفاع عن رأي يبدو غير سليم.
محاولة حل المشكلة	عرض منطق الأطروحة؛
	تدعيم الأطروحة بحجج شخصية؛
	نقد خصوم الأطروحة.
حل المشكلة	التأكيد على مشروعية الدفاع.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

تطبيق : .

1 . حدّد المشكلة في الموضوع التالي :

هل من تناقضٍ في القول : " حُكِم على الإنسان أنْ يكون حرّا" ؟

هذا السؤال سؤال استفهامي يطلب منّا البحث في مشكلة معيّنة يجب تحديدها لتحديد المواقف المترتبة عنها وهذا ما تعلّمتَه ؛ أخي الطالب؛ في المشكلة الأولى أليس كذلك؟ ومن جهة أخرى قد أدركت أنّ من أنواع التقابل التناقض وهو ما لا يجتمع فيه الأمران معًا. ونحن مطالبون كذلك في البحث عن هذا التناقض، هل هو حقيقي أم هو تناقض ظاهري يمكن تجاوزه بنظرة ما ؛ أي بين الإثبات والنفي في ظلّ ما درست عن الحرية والمسؤولية وما تعرضت له من مواقف عندما تناولت بالدراسة والتحليل المذاهب الفلسفية.

2 . مقالة فلسفية

الموضوع : أثبت الأطروحة القائلة : « إننا واثقون من حريتنا لأننا ندركها إدراكًا مباشرا، فلا نحتاج إلى برهان، بل نحدسها حدسًا » .

تفكيك الموضوع :

تحديد المفاهيم :

الحرية : هي القدرة على التصرف باستقلال عن الإكراهات الداخلية والخارجية.

الإدراك : هنا بمعنى الوعي والمعرفة.

الحدس : ويقصد به في الأطروحة " الشعور وهو طريق مباشر للمعرفة"، أي أن الذات تطلع على الموضوعات دون مقدمات ولا وسائط.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

البرهان : هو استدلال وهو الطريق الثاني للمعرفة ويكون غير مباشر أي ننتقل من مقدمات إلى نتيجة.

تحديد العلاقة المنطقية المراد إثباتها :

العلاقة السببية : (الحدس سبب كافٍ لإثبات حرية الإرادة الإنسانية).

تحديد طريقة المعالجة :

الموضوع يقترح أطروحة ويطلبُ إثباتَها، وبالتالي فطريقة المعالجة هي طريقة الاستقصاء بالوضع.

المقالة الفلسفية :

طرح المشكلة :

1 . **المسلمة** : يعتقد بعض الفلاسفة أنّنا مثل أيّ كائن آخر في هذا الكون نخضع لقوى وقوانين، تحكم جميع تصرفاتنا، تماما كما تحكم حركات الكواكب والمجرات.

2 . **إبراز التعارض** : لكننا في مقابل هذا عندما نباشر أيَّ عمل ولا نجبر عليه، نشعر أننا نقوم بذلك العمل بملء إرادتنا وبقرارنا الحر. وبهذا الشعور نعرف أننا كائنات حرة.

3 . **صياغة المشكل** : فإذا كنّا بالفعل كائنات حرة، وأن شعورنا لا يخدعنا في إخبارنا أننا أحرار، فما الذي يبرر ذلك؟

محاولة حل المشكلة :

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

1 . الجزء الأول (عرض منطق الأطروحة) : إن الحرية في معناها الميتافيزيقي تشير إلى القدرة على التصرف عن الإكراهات الداخلية والخارجية، ومن حيث أن البشر كائنات حرة فإن هذه القدرة تكون علة التصرف لديهم، أي السبب الأول لتصرفهم، ونحن نعرف ذلك من خلال التجربة الشعورية، فالواحد منا يشعر بهذه القدرة أثناء قيامه بعمل من الأعمال وبشعوره أيضا يميز بين الفعل الاضطراري والفعل الاختياري. للمعرفة طريقان إما الحدس أو الاستدلال، ولا يخرج علمنا بالأشياء وإثباتها عن أحدهما أو كليهما. وإذا ثبت أنه لا تتم المعرفة بأحدهما لزم ضرورة أن تتم بالآخر. إن البرهان هو استدلال تكون النتيجة فيه لازمة بالضرورة عن المقدمات. مثل قولنا : كل إنسان فان – وسقراط فان – يلزم عن هذا بالضرورة أن سقراط فان. ولهذا فإذا برهنا على الحرية تصبح هذه الحرية لازمة بالضرورة وهذا تناقض. وفي هذا قال **ألان** ALAIN" أن كل برهان على الحرية هو قتل لها".

وبناء على المسلمات السابقة؛ وبما أنه من المتعذر إثبات الحرية بالبرهان، فمعرفتنا لها بالحدس دليل كافٍ على وجودها.

2 . الجزء الثاني (عرض منطق الخصوم ونقده) لكن "سبينوزا " و "ليبنتز" ومن انتهج نهجهما يشكِّكون في دور الحدس (الشعور) وقيمته في المعرفة، ومن ثم لا يمكن الاعتماد عليه في إثبات الحرية. وذلك على اعتبار أن الشعور يطلعنا على الأفعال التي نقوم بها ولا يطلعنا على أسبابها فنتوهم أن مصدرها هو إرادتنا الحرة يقول "سبينوزا" : « لا توجد في النفس البشرية أية إرادة مطلقة أو حرّة وإنّما النفس يتعين عليها أن تريد هذا أو ذاك بسبب بدوره معين بآخر، وهكذا إلى

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

ما لا نهاية. » ويقول أيضا: « إن الناس يخطئون عندما يخالون أنفسهم أحرارا، والسبب في ذالك هو شعورهم بأفعالهم وجهلهم بالأسباب التي تدفعهم إليها. »

يستند أصحاب هذه الأطروحة إلى المسلّمة القائلة أن الأفعال التي تستند إلى أسباب ليست حرة. وبما أن جميع الأفعال البشرية العقلانية تستند إلى أسباب تستدعيها إذن فأفعال البشر ليست حرة. وهذا غير صحيح لأن الحرية توجد لكائنات عاقلة تعمل بمقتضى الأسباب والنتائج، فقيام الإنسان بعمل ما لسبب ما لا يعني أن هذا العمل ليس من اختياره لمجرد أن له سبب يقتضيه. فالطالب الذي اختار النجاح فإنه أيضا يكون قد اختار سببه وهو الاجتهاد. ولا يصح أن يقال أنه مرغم على الاجتهاد، لأنه إذا أراد أن يترك الاجتهاد تركه لكنه في الوقت نفسه سيترك النجاح في البكالوريا. وهو ما عبّر عنه "ديكارت" عندما قال : "عندما أختار الأفضل فإنني أشعر أنه كان بإمكاني أن أختار السيئ"، وهذا يعني أن إرادتي في اختيار الأفضل دائما لا ينفي قدرتي على اختيار الأسوأ، ولكن من حيث أنني كائن عاقل فإن عقلي يوجهني دائما إلى الأفضل. إن نفي الحرية عن الإنسان تنفي نظامه الأخلاقي جملة، إذ تتأس جميع أخلاقنا من حيث هي واجبات على قدرتنا الحرّة في الالتزام بها، وعلى أساس هذا الاختيار تتقرر مسؤوليتنا. ولو لا الحرية لما استحق المحسن مدحًا ولا المسيء ذمًّا.

3 . الجزء الثالث (الدفاع عم الأطروحة بحجج شخصية) إنّ الشعور قد يخدعنا، وقولنا قد يخدعنا لا يعني أنه يخدعنا دوما وفي كلّ مرة، بل يفعل ذلك لعارض من العوارض التي تعتريه، أما الأصل فيه أنه يطلعنا على عالمنا الداخلي والخارجي، ولولاه ما كان البشر بشرا وما صحت معرفة، ولا كان لدينا إدراك، أو

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

أي معرفة بموضوعات العالم الخارجي. ألا ترى أن الحواسيب المعاصرة تقوم بعمليات أعقد ممّا يقوم به عقل البشر، وتساعدنا على توقعات دقيقة فيما يخص ظواهر الكون والطبيعة، ومع ذلك لا يصح القول أن هذه الحواسيب تعرف شيئا، وذلك لأنها لا تملك شعورا فقط ولو امتلكت شعورا لأصبحت مثلنا توصف بالقدرة على المعرفة والعلم.

ومن هذا المنطلق فإنّ رفض كل معرفة يأتي بها الشعور هو رفض لبشريتنا ورفض للإدراك والمعرفة والعلم، ورفض أيضا لنفي الحرية كما هو رفض لإثباتها، لأنّ إدراك براهين الرفض تتم بالشعور (فنحن لا نبرهن على البرهان حتى ندركه).

وعليه فإنّ شعورنا بالحرية كافٍ لإثبات أنّنا كائنات حرة.

ترى المعتزلة : « **أنّ الإنسان يحسّ من نفسه وقوع الفعل على حسب الدواعي والصوارف، فإذا أراد الحركة تحرك وإذا أراد السكون سكن، ومن أنكر ذلك جحد الضرورة .**»

ونجد الفكرة ذاتها عند "ديكارت DESCARTES "« بل الأولى أن يقال أن حريتي في اختيار أحد الطرفين وإيثاره على الآخر تزيد بمقدار ما يكون عندي من الميل إليه. » فالحرية هنا هي القدرة على الاختيار وسبب هذا الاختيار هو" الميل" الذي هو الإرادة ذاتها، فليس هناك سبب آخر يكره الإرادة على الاختيار.

حل المشكلة :

ومن التحليل السابق يتضح أن الحرية الإنسانية حقيقة لا يمكن ردّها أو التشكيك في قيمتها على اعتبار أن مصدر معرفتنا بها هو الحدس (الشعور)،

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

لأن هذا الحدس هو مصدر جميع معارفنا بما في ذلك المعارف البرهانية، إذ يقوم البرهان على الحدس، ونلجأ إلى هذا الأخير متى كان الحدس غير كافٍ، وفي حال موضوعنا لمّا كان البرهان على الحرية يقتلها، لم يبق من السبيل إلى إدراكها سوى الحدس النفسي (أي الشعور).

3 . مشكل الأطروحة : « إن جميع معارفنا قوامها العقل ».

المسلمة : إنّنا نعرف أن لون هذا الثوب أصفرأو أبيض، وأنّ الجوَّ بارد أو دافئ لكوننا نحس بذلك، وهذا يدفعنا للاعتقاد أن الحواس مصدر معارفنا.

إبراز التعارض : لكننا لا ننسب للحيوان معرفة، رغم أنه يشاركنا في الإحساس، بل قد تفوق علينا فيه، وما ذلك إلاّ لأنه يفتقر للعقل، وإذا كان افتقاره للمعرفة يصاحب افتقاره للعقل، فإنّ هذا يعني بالضرورة أن العقل هو قوام جميع معارفنا وليست الحواس. **السؤال :** ويدفعنا هذا التساؤل : أتعود معارفنا إلى العقل، أم إلى الحواس؟ **(يُعالج عن طريق الجدل).**

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

إذا كانت المعرفة . خاصة ما تعلّق بالعالم الخارجي . لا تنفصل عن الإحساس، فكيف يكون العقل قوام جميع معارفنا؟

المفكّر ، لـ " رودان " Rodin

أنجزها ما بين 1880 – 1906

جميع الحقوق محفوظة ©